تشكيل النازع العلمي بين التنظير والتطبيق عند النورسي

إحسان قاسم الصالحي

مركز رسائل النور – استانبول

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين

حضرات الأساتذة الكرام والأخوة الأعزاء والأخوات الفاضلات

نحييكم بتحية الإسلام من أعماق قلوبنا ومن صميم أفئدتنا فنقول :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

نظرة إلى التاريخ القريب:

لقد تعرضت روح إعلاء كلمة الله في أواخر الدولة العثمانية إلى الضعف ، وبدأ النظام القانوني بالتفسخ رويدا رويدا. وتخلّف أهلُ العلم عن ركب العلم. فضلا عن أن البعض توهموا أن جوانب من العلم تناقض بعض نصوص من الإسلام. علاوة على أن الدولة قد غرقت في الديون حتى وصلت حد الإفلاس. وتسرب الإسراف والبذخ من القصور إلى الطبقة الحاكمة. وانتشرت الرشوة والتزلف والتشفع في دوائر الدولة. وتدخل نساء السلطنة في شؤون الدولة.

حاول السلطان عبد الحميد (1842– 1918م) الذي دام حكمه ثلاثاً وثلاثين سنة (1876–1909م) إرجاع الدولة إلى سابق عهدها المجيد. فقام بإصلاحات في السلك التعليمي والعسكري وفي مرافق الدولة كلها وفي الصعيد الخارجي. ولكن ذلك كله جاء بعد فوات الأوان. لأن الدوائر الأجنبية كانت قد استطاعت أن توجد في قلب الدولة نفسها ركائز استخدمتهم في اللحظة المناسبة هزّ شجرة الدولة من الجذور. والإجهاز بعد ذلك على جذعها وأغصانها .. وقد ساهم في مشاريع الإجهاز على الدولة نخبة المجتمع الأوربي بكفاءات علمية وسياسية وعسكرية عالية المستوى.

هذا فضلا عن المؤسسات والإرساليات التبشيرية بمختلف المذاهب التي عملت داخل تركيا وخارجها على بث الأفكار المناهضة للإسلام منذ سنة 1842م.

وتشكلت هذا الغرض "دار الحكمة الإسلامية" في 25/8/1918 وهي أعلى مؤسسة علمية أكاديمية تسعى لإيجاد الحلول المنسجمة مع روح الإسلام للمشاكل التي ظهرت في العالم الإسلامي بصورة عامة وردّ الشبهات التي تثيرها أوساط أجنبية مختلفة. وانتخب لها افضل العلماء في تلك الفترة. منهم: مصطفى صبري شيخ الإسلام. زاهد الكوثري. بديع الزمان سعيد النورسي. محمد عاكف. احمد نعيم بابان. محمد حمدي يازير. إسماعيل حقي إزميرلي وغيرهم. ولكن اتسع الخرق على الراقع.[1]

وبعد سقوط الدولة العثمانية. وفي الفترة التاريخية الخاصة (أي منذ سنة 1922م) سنت قوانين وقرارات لقلع الإسلام من جذوره وإخماد جذوة الإيمان في قلب الأمة. فألغيت السلطنة العثمانية في (1/11/1922) وأعقبها إلغاء الخلافة في (3/3/1924) فمُنع تدريس الدين في المدارس كافة. وبُدّلت الأرقام والحروف العربية في الكتابة إلى الحروف اللاتينية. وحُرم الأذان الشرعي وإقامة الصلاة باللغة العربية. ومُنع القيام بأي نشاط أو فعالية في صالح الإسلام. إذ حُظر طبع الكتب الإسلامية. وأُرغم الناس على تغيير زيهم إلى الزي الأوروبي. فالرجال أُرغموا على لبس القبعة والنساء على السفور والتكشف ..

وشكّلت محاكم زرعت الخوف والرعب في طول البلاد وعرضها. ونصبت المشانق لعلماء أجلاّء. ولكل من تحدثه نفسه بالاعتراض على السلطة الحاكمة. فساد جو من الذعر والهلع في أرجاء البلاد. حتى أصبح الناس يخفون القرآن الكريم عن أنظار موظفي الدولة. ونشطت الصحافة في نشر الابتذال في الأخلاق والاستهزاء بالدين. فانتشرت كتب الإلحاد.

وفي هذا المنعطف التاريخي الخطير قيض الله سبحانه وتعالى بفضله وكرمه بديع الزمان سعيد النورسي المولود في مطلع القرن الهجري الماضي 1293هـ(1876 م) وألقى على كاهله مسؤولية النهوض بتجديد حياة الإيمان الراكد في القلوب وبعث التصدي للتيار الجارف المكتسح الذي كاد يسلخ الأمة عن تاريخها ودينها. فأخذ يؤلف رسائل إيمانية سماها "رسائل النور". وبدأ ينشرها بين من يثق فيهم حتى غزت العقول والقلوب والأرواح بجهاد معنوي كبير وشامل. فكيف غرزت هذه الرسائل هذا الفهم السليم في قلوب هذا الجيل؟ هذا ما سنتناوله في بحثنا.

الصلة بين الدين والعلم مما لا يختلف فيه اثنان أن القرآن الكريم والسنة الشريفة قد حثا على طلب العلم وأشادا بالعلماء. فأوائل أكثر الآيات القرآنية وخواتمها. تحيل الإنسان إلى العقل فمثلاً: فاعلموا ..فاعلم ..أفلا يعقلون ..أفلم ينظروا ..أفلا ينظرون.. فانظروا.. أفلا يتدبرون.. أفلا تتذكرون... يعقلون..لا يعقلون ..يعلمون..فاعتبروا يا أولي الأبصار .. وأمثالها من الآيات التي تخاطب العقل البشري. وكذا نجد أحاديث شريفة كثيرة في هذا المجال.

"ولكن البلاء النازل في عصرنا هذا هو توهمنا -نحن والأجانب - بخيال باطل، وجود تناقض وتصادم بين بعض ظواهر الإسلام وبعض مسائل العلوم. كما يقول النورسي ويعقب: " إن أعظم سبب سلب منا الراحة في الدنيا. وحرم الأجانب من سعادة الآخرة. وحجب شمس الإسلام وكسفها هو : سوء الفهم وتوهمُ مناقضة الإسلام ومخالفته لحقائق العلوم.

فيا للعجب! كيف يكون العبد عدوّ سيده. والخادم خصم رئيسه. وكيف يعارض الابن والده ! فالإسلام سيد العلوم ومرشدها ورئيس العلوم الحقة ووالدها".[2]

وحيث إن الدين بالفهم القرآني في رسائل النور يشمل الحياة كلها ويستوعب المكونات جميعها، ولا يقتصر على جزئية منها فحسب. بل لا شيء خارجه. ذلك لأن الموجودات كلها والحوادث جميعها تتجلى عليها أنوار الأسماء الإلهية الحسنى لمن يريد أن يبصر. فلا شيء خارج أوامره وعلمه جل وعلا. ولا شيء يفلت من قدرته سبحانه. لذا فليس هناك ما يسمى علم ودين كأن يكون أحدهما يقابل الآخر أو يقارنه أو يتميز عنه أو يناقضه. يبسط النورسي الموضوع بقوله:

الشريعة اثنتان

إحداها: هي الشريعة المعروفة لنا. التي تنظم أفعال الإنسان وأحواله. ذلك العالم الأصغر. والـــتي تأتي من صفـــة الكلام (الوحي الإلهي).

الثانية: هي الشريعة الكبرى الفطرية. التي تنظم حركات العالم وسكناته. ذلك الإنسان الأكبر. والتي تأتي من صفة الإرادة الإلهية. وقد يطلق عليها خطأ اسم الطبيعة".[3]

فالله سبحانه وتعالى قد عيّن بإرادته طبيعة الأشياء، وجعلها مرآة عاكسة لتجليات

الشريعة الفطرية الكبرى التي فطر عليها الكون. والتي هي قوانين الله وسننه الجارية التي تخص تنظيم شؤون الكون. وقد أوجد بقدرته وجه "الطبيعة" التي يقوم عليها عالم الشهادة الخارجي الوجود. ثم خلق الأشياء وأنشأها على تلك الطبيعة ومازج بينهما بتمام حكمته"[1]

ومن هنا نرى أن أوامر الله سبحانه وتعالى قد أحاطت بكل شيء.. فالعلوم الحاضرة دون بكافة أصنافها وأنواعها انما هي جزء من شمولية الدين. سواء ما اختص باسم " علوم الدين" من تفسير وفقه وما شابه. أو ما يسمى بـــ "علوم الدنيا" من علوم فيزياء أو كيمياء أو علوم حياة أو غيرها. هذه العلوم كلها هي في حقيقتها آفاق لتجليات الأسماء الحسنى. أي جزء من بنية الدين الشامل للوجود أجمع. يقول النورسي: "حقيقة العلوم تستند إلى الأسماء الحسنى

إن كل ما ناله الإنسان – من حيث جامعية ما أودع الله فيه من استعدادات – من الكمال العلمي والتقدم الفني. ووصوله إلى خوارق الصناعات والاكتشافات. تعبّر عنه الآية الكريمة بتعليم الأسماء. ﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾. وهذا التعبير ينطوي على رمز رفيع ودقيق. وهو

أن لكل كمال. ولكل علم. ولكل تقدم. ولكل فن – أيا كان – حقيقة سامية عالية. وتلك الحقيقة تستند إلى اسم من الأسماء الحسنى. وباستنادها إلى ذلك الاسم – الذي له حُجُب مختلفة. وتجليات متنوعة. ودوائر ظهور متباينة – يجد ذلك العلمُ وذلك الكمال وتلك الصنعة. كلّ منها كماله. ويصبح حقيقة فعلاً. وإلاّ فهو ظل ناقص مبتور باهت مشوش.

فالهندسة – مثلاً– علم من العلوم. وحقيقتها وغاية منتهاها هي الوصول إلى اسم (العدل والمقدّر) من الأسماء الحسنى. وبلوغ مشاهدة التجليات الحكيمة لذلك الاسم بكل عظمتها وهيبتها في مرآة علم (الهندسة).

والطب –مثلاً– علم ومهارة ومهنة في الوقت نفسه. فمنتهاه وحقيقته يستند أيضاً إلى اسم من الأسماء الحسنى وهو (الشافي). فيصل الطب إلى كماله ويصبح حقيقة فعلاً بمشاهدة التجليات الرحيمة لاسم (الشافي) في الأدوية المبثوثة على سطح الأرض الذي يمثل صيدلية عظمى. والعلوم التي تبحث في حقيقة الموجودات - كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان

ـــ هذه العلوم التي هي (حكمة الأشياء) تمكن أن تكون حكمة حقيقية بمشاهدة التجليات الكبرى لاسم الله (الحكيم) جل جلاله في الأشياء. وهي تجليات تدبير، وتربية، ورعاية. وبرؤية هذه التجليات في منافع الأشياء ومصالحها تصبح تلك الحكمة حكمة حقا، أي بإسنادها إلى ذلك الاسم (الحكيم) وإلى ذلك القدير تصبح حكمة فعلا. وإلا فإما أن تنقلب إلى خرافات وتصبح عبثا لا طائل من ورائه أو تفتح سبيلا إلى الضلالة. كما هو الحال في الفلسفة الطبيعية المادية". ولموضوع رؤية تلك التجليات يقول النورسي: "نوع النظر كالنية تقلب العادات إلى عبادات، كما تصبح العادات المباحة بالنية عبادات كذلك تكون العلوم الكونية بنوع النظر معارف إلهية.

فإذا ما نظرت إلى هذه العلوم نظرا حرفيا (أي مشيرا إلى معنى في غيره)، مع دقة الملاحظة، والتفكر العميق، من حيث الصنعة والإتقان، أي أن تقول: "ما أبدع خلق هذا! ما أجمل صنع الصانع الجليل!" بدلا من قولك: "ما أجمله".

نعم، إذا ما نظرت إلى الكون من هذه الزاوية تجد أن نقوش المصور الجليل ولمعة القصد والإتقان في نظامه وحكمته تنور السيئات وتبددها. وعندها تتبدل العلوم الكونية معارف إلهية.

ولكن لو نظرت إلى الكائنات بالمعنى الاسمي، ومن حيث "الطبيعة" أي أنها تولدت بذاتها، فعندها تتحول دائرة العلوم إلى ميدان جهل". ومن هنا نرى أن تطور العلوم يزيد رقعة الدين توسعا.

نعم، إن في رسائل النور كثيرا من الأمثلة العلمية المادية من الواقع الملموس كدليل على المسائل الإيمانية. إذ كلما أتى العلم –أيا كان ذلك العلم– بالجديد فتح آفاقا جديدة لإدراك تجليات من أنوار اسم من الأسماء الحسنى. فكلما تقدم العلم وأعلى للأوساط حكما جديدة بكشفه عن كيفية نشوء الحوادث أصبح وسيلة لفهم أوضح للمسائل الإيمانية. ولهذا يشيد النورسي بالتقدم العلمي والكشوفات الحديثة بقوله: "فمرحى لجهود المعرفة الفياضة وانتشارها. وبخ بخ لعلماء العلوم الغيورة. اللتين أمدتا تحري الحقائق وشحذتا الإنسانية. وغرستا ميل الإنصاف في البشرية".

ولا شك أن هذا الأسلوب الحكيم يكثر من أسلوب سوق المسائل التي اكتشفت على العلم الحديث – والتي لم يتمكن من كشف نتائجها وتوضيحها بعد – كشواهد لإثبات عظمة الخالق ودلائل قدرته سبحانه. وما عجز عنه العلم إلى الله سبحانه. لذا حيث تتوضح تماماً – بعد الكشف العلمي – وتتضح من الأمور الشبيهة. فإن تلك الأدلة الإعجازية التي سيقت سوف تتشعشع، وبدورها تشع الآفاق.

وهذا فإن تطور العلوم، على خلاف ما يظن البعض، لا ينقص من رفعة الدين، بل يزيدها توسعاً. ولا ينقص من تأثيره، بل يزيده قوة. ذلك أن العلوم، ما كانت جزءاً داخلاً في بنية الدين نفسه، كانت الأطوار التي تتقلب فيها والتي يتصل لاحقها بسابقها، تفتح في الدين آفاقاً معرفية غير مسبوقة وترقي بفهمنا له درجات على قدر هذه الأطوار. بل قد تتعدى ذلك إلى كونها تجدد قدرتنا على التدين وتنوع سبل تحققه لدينا.

بل يذهب الأستاذ النورسي إلى أبعد من هذا فيستنبط من ذكر القرآن الكريم لمعجزات الأنبياء عليهم السلام، أنهم خطوا لنا قمة العلوم ونهاية حدودها.

الأنبياء عليهم السلام بمعجزاتهم رواد العلوم:

يبين القرآن الكريم أن الأنبياء عليهم السلام قد بُعثوا إلى مجتمعات إنسانية ليكونوا لهم أئمة الهدى يُقتدى بهم، في رقيهم المعنوي. ويبين في الوقت نفسه أن الله قد وضع بيد كل منهم معجزة مادية، وينصبهم روّاداً للبشرية وأساتذة لها في تقدمها المادي أيضاً. أي أنه يأمر بالاقتداء بهم واتباعهم اتباعاً كاملاً في الأمور المادية والمعنوية، إذ كما يحض القرآن الكريم الإنسان على الاستزادة من نور الخصال الحميدة التي يتحلى بها الأنبياء عليهم السلام، وذلك عند بحثه عن كمالاتهم المعنوية، فإنه عند بحثه عن معجزاتهم المادية أيضاً يومئ إلى إثارة شوق الإنسان ليقوم بتقليد تلك المعجزات التي في أيديهم، ويشير إلى حثه على بلوغ نظائرها...

نعم، إن القرآن الكريم بإيراده معجزات الأنبياء إنما يخط الحدود النهائية لأقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في مجال العلوم والصناعات، ويشير بها إلى أبعد غاياتها، وغاية ما يمكن أن تحققه البشرية من أهداف. فهو بهذا يعين أبعد الأهداف النهائية لها ويحددها. ومن بعد ذلك يحث البشرية ويحضها على بلوغ تلك الغاية، ويسوقها إليها. إذ كما أن الماضي مستودع بذور المستقبل ومرآة تعكس شؤونه. فالمستقبل أيضاً حصيلة بذور الماضي ومرآة

آماله"[9] ويخلص النورسي إلى القول:

" أنّ البشرية في أواخر أيامها على الأرض ستنساب إلى العلوم. وتنصبّ إلى الفنون. وستستمد كل قواها من العلوم والفنون فيتسلم العلمُ زمام الحكم والقوة".[10]

نعم. لو راجعنا القرآن الكريم المعجزة الخالدة التي لا تتأثر بصروف الزمان ولا تنقضي عجائبه. نرى أن "بابه مفتوح لكل عصر ولكل طبقة من طبقاته. حتى كأن ذلك الكلام الرحماني يسيل في كل مكان في كل حين. فكلما شاب الزمان شبّ القرآنُ وتوضحت رموزُه".[11]

من النظر إلى التطبيق: لقد انتهت "رسائل النور" في الوقت الحاضر بفضل الله وكرمه إلى تكوين جيل مؤمن يحمل اليقين في قلبه والإقدام في روحه والعلم في عقله. فانطلق في الآفاق نموذجا إيمانيا فريدا في هذا العصر العصيب. فأسس المدارس بمستويات مختلفة وأنشأ مؤسسات ثقافية ومراكز علمية. وإذاعات مرئية ومسموعة وتولى نشر الصحف اليومية والمجلات العلمية والمتخصصة في شؤون الحياة المختلفة.. وأمتاها من الثمار اليانعة الكثيرة. التي تجاوزت ربوع البلاد وبلغت أقاصي البلدان في أرجاء العالم. حيث غدا ساعيا إلى نيل رضى الله سبحانه في المختبر والمعمل كما يناله في المسجد. وأن يتعبد لله بمدارسة العلوم الحديثة والغوص فيها مثلما يتعبد بكتب الفقه والشريعة. كل ذلك باسترشاده بحقائق القرآن التي ينهلها من رسائل النور.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الهوامش:

1 انظر السلطان عبد الحميد الثاني. حياته وأحداث عهده. أورخان محمد علي ط3 دار الأنبار. بغداد 1986.

2 صيقل الإسلام/محاكمات – ص: 23

3 المكتوبات – ص: 613

4 اللمعات – ص: 286

5 الكلمات – ص: 291

6 الكلمات – ص: 868

7 صيقل الإسلام – محاكمات – ص. 23

8 د. طه عبد الرحمن، لعرض ندوة نقاد في فندق حكمة في الرباط في 26 10 2002.

9 الكلمات – ص. 279

10 الكلمات – ص. 292

11 الكلمات – ص. 882